المحاضرة التاسعة: شعر الحماسة موضوعاته

تمهيد:

طرق شعراء العصر الجاهلي جميع الأغراض والفنون الشعرية المعروفة؛ كالفخر والحماسة، والمدح والغزل، والرثاء والهجاء، والوصف والحكمة، وغيرها. وقد احتلت "الحماسة" منزلة كبيرة عند العلماء والرواة والدارسين قديما وحديثا، وحظيت بعناية فائقة من طرف شرَّاحُ الشعر؛ وبخاصة اللغويين منهم، والدليل على ذلك عدد تلك الشروح التي وصلت إلينا؛ حيث تقارب أربعين شرحا، يقول التبريزي:" "[1].

يقول المرزوقي في وصف عمل أبي تمام:"وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال، ولا من الشعر إلى المتردد في الأفواه، المجيب لكل داع، بل اعتسف في دواوين الشعراء جاهليهم ومخضرمهم، وإسلاميهم ومولدهم، واختطف منهما الأرواح دون الأشباح، واخترف الأثمار دون الأكمام، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه، لأن ضروب الاختيار لم تخف عليه، وطرق الإحسان لم تستتر عنه، وحتى إنه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه، فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده"[2].

يقول التبريزي:"كَانَ الشّعْر من شَاعِرهمْ بِمَثَابَة خزانَة النفائس من صَاحب الْكُنُوز إِلَيْهِ مرجع كل نَفِيس وَفِيه مَوضِع كل جما لبيد أَن مَا روى من شعر الْعَرَب شَيْء كثير لَا يحاط بِهِ وَإِن قصر عَلَيْهِ الْعُمر فَكَانَت الْحَاجة ماسة إِلَى مَجْمُوع يقوم مِنْهَا مقَام الْخُلَاصَة وَلم نجد من ذَلِك أحسن وَلَا أوفى من كتاب الحماسة الَّذِي اخْتَارَهُ ملك الْكَلَام أَبُو تَمام فقد كَانَ للرجل من المحفوظات مَا لَا يلْحقهُ فِيهِ غَيره قيل إِنَّه كَانَ يحفظ أَرْبَعَة عشر ألف أرجوزة للْعَرَب غير القصائد والمقاطيع هَذَا عدا مَا اطلع عَلَيْهِ فِي خزانَة كتب أبي الْوَفَاء الْعَظِيمَة الَّتِي جمع مِنْهَا هَذَا الْكتاب"[3]

وسأقتصر في هذه المحاضرة على موضوع الحماسة، وعلى الحديث عنها في الشعر العربي القديم، بشيء من الإيجاز، متعرضا إلى أعلام شعر الحماسة وشعر الحماسة وأهم خصائصه الفنية، وما يتصل بذلك.

الحماسة لغة:

جاء في المعاجم: رجل أحمس شجاع، والأحمس: الشديد الصلب في الدين والقتال.وعام أحمس وسنة حمساء أي شديدة. ونجدة حمساء: شجاعة. والحماسة: المنع والمحاربة. والتحمس: التشدد.ويقال

---

[1]– الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2 ،1661م، 2212هـ، باب الحاء، ص 530.

[2]– أبو علي المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص 03-04.

[3]– الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2 ،1661م، 2212هـ، باب الحاء، ص 530.

لقريش: حمس لشجاعتهم[1]. وفي الشعر تعني التغني بصفات البطولة والرجولة وركوب المخاطر وخوض غمرات القتال، ووصف ما في الحرب من كر وفر وعدد وسلاح ودماء وجرحى وقتلى.

وقبل الحديث عن هذا الموضوع أود الإشارة إلى أن الدارسين العرب اتفقوا على جعل موضوع الحماسة والفخر بابا واحدا؛ حيث نجد **بطرس البستاني** يؤكد على هذا الاتفاق في قوله:"اتفق مؤرخو الأدب أن يجعلوا الفخر والحماسة بابًا واحدا لما بينهما من الاتصال الوثيق؛ لأن الحماسة ليست سوى فخر الفارس ببطولته وذكر وقائعه، ووصف فرسه وسلاحه. وباب الفخر في الجاهلية– وإن اتسع إلى موضوعات غير الفروسية كالنسب والسيادة والكرم والأخلاق والأهل والولد والفصاحة– لا يخلو أصلا عن المباهاة بالشجاعة والإقدام. ومن العبث أن نبحث عن فخر شاعر بنفسه، أو مدح شاعر لغيره، أو رثاء شاعر لميت دون أن يكون للشجاعة القسط الراجح، بحيث لا يمكن أن نفصل الفخر عن الحماسة؛ لأنهما وجدا توأمين متلازمين، فلا فخر بدون حماسة، وكذلك الحماسة هي الفخر بعينه. ويحسن بالفروسية أن يرافقها شرف المحتد ومكارم الأخلاق، حتى إن المضعوفين في نسبهم يدافعون عنه أنبل دفاع، كما دافع عنترة عن نسبه لأمه. ولا يرضى أحد الصعاليك– كالشنفرى والسليك– أن يُغمز في حميد صفاته"[2].

وشعر الفرسان يشتمل على جميع الفضائل الجاهلية، وأخصها فضيلة الفروسية؛ حيث ينصرف الشاعر إلى ذكر حروبه مبالغا في وصف البطل الذي يبارزه ويسطو عليه، أو وصف المعركة التي يخوض غمارها، ويلقي بنفسه في مهالكها.

أولا – كتب الحماسة: اشتهرت مجموعة من المؤلفات بعنوان الحماسة، أذكر منها:

1– كتاب: " **الحماسة البصرية** " لعلي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (ت **٦٥٩هـ)**.

2– كتاب: " **(الحماسة المغربية) مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب** " ل: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي (ت **٦٠٩هـ)**

3– كتاب: " **(الوَحشيَّات وهوَ الحمَاسَة الصُّغرى)** " ل: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر، الأديب (ت ٢٣١هـ).

شروح كتاب الحماسة:

---

[1]– الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2 ،1661م، 2212هـ، باب الحاء، ص 530.

[2]– بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية والإسلام حياتهم، آثارهم، نقد آثارهم، ط0،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة،القاهرة،مصر،2014، ص 44.

شعر الحماسة:

منهج الكتاب في حماسة أبي تمام:

تناول النقاد القدامى حماسة أبي تمام بالشرح- كما سبق الذكر- وللنقاد المحدثين دراسات تناولت منهج الحماسة؛ حيث يصف الدكتور إحسان عباس حماسة أبي تمام ومنهجه في تأليفها، ومخالفته علماء عصره في نظرتهم للشعر العباسي، بقوله:" خالف أبو تمام (231هـ) في تأليف كتاب "الحماسة" هذه الروح المتوجهة نحو الشعر المحدث، لأن ما أورده في كتابه من شعر المحدثين قليل، ولا ريب في أن موقفه يثير إعجابنا ودهشتنا معاً، فهو شاعر ذو طريقة خاصة في الشعر يهاجمها كثير من النقاد والمتذوقين حينئذ. فلا يحاول أن يدافع عن هذه الطريقة بالتعصب لما قاربها أو أشبهها من شعر معاصريه"[1]. ويلخص الدكتور إحسان عباس منهج أبي تمام في الحماسة، في جملة من النقاط، نذكرها فيما يأتي: [2]

- يعمد أبو تمام إلى الشعر القديم، فيستخرج منه من المقطعات التي يحتاج إلى إثباتها إلى تذوق أصيل.
- معرضاً عن القصيدة في الأكثر.
- دلالة مختاراته على أنه يستطيع أن يتجاوز طريقته الشعرية وما فيها من طلب للصور ومن إغراب في توليد المعاني واستغلال للذكاء الواعي إلى شعر مشمول بالبساطة وشيء غير قليل من العفوية والصدق العاطفي المباشر،
- ثم لا يطلب ذلك فيما " ذلَّلَـهُ " العلماء من شعر المشهورين.
- يعمد - في الأغلب - إلى أناس مغمورين من شعراء الجاهلية والإسلام، دون مثال يحتذيه.
- الاعتماد على الذوق الذاتي. فأن المفضل الضبي والأصمعي من قبله إنما عمدا في اختيارهما إلى القصيدة، معتمدين على ما كانت الرواة قد استخرجته ونوهت به من شعر المقلين.
- فكان أبو تمام بذلك رائداً كثر مقلدوه دون أن يبلغوا شأوه.
- وقد أتيح له أن يهتدي إلى ابتكار جزئي حين جمع ضروباً من الفنون الشعرية - مثل وصف المعركة، والفخر بالشجاعة. وذكر الفرار من الحرب؟ الخ - تحت فن جديد سماه " الحماسة " وبه سمي الكتاب كله.

ويذكر الدكتور عمر الدقاق ملاحظاته على كتاب الحماسة، ومنهج تأليفه: [3]

- اعتماده على الذوق في الاختيار، فقلما يثبت قصيدة كاملة، بل يختار معظمها أو اقلها محتكما في ذلك إلى ذوقه الشخصي.

---

[1]- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر، ط01، دار الثقافة، بيروت، لبنان،1971، ص 72.

[2]- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر، ص 72.

[3]- عمر الدقاق: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، المكتبة العربية للنشر والتوزيع،حلب،سوريا،1968، ص53- 54.

– أباح لنفسه التصرف أحيانا في الشعر، كأن يستبدل لفظا بآخر، أو عبارة بأخرى.

– والمميز في حماسة أبي تمام جمعه المختارات الشعرية في عشرة أبواب هي: باب الحماسة، باب المراثي، الأدب، النسيب، الهجاء، الأضياف والمديح، الصفات، السير والنعاس، الملح، مذمة النساء.

ويذكر الدكتور إحسان عباس بعض الانتقادات التي وجهها النقاد لأبي تمام فيقول:"وقد كان البون بعيداً حقاً بين اختيار أبي تمام وطريقته الشعرية. ولكن بدلاً من أن يلمح بعض النقاد أصالة الذوق المنصف لديه اتهموه بأنه طوى أكثر ما أحسنت فيه الشعراء ولم يدرجه في الحماسة وأبقاه لديه ليسرق معانيه منه فتخفى سرقاته من النقاد"[1].

ومن نماذج شعر الحماسة ما جاء في الباب الأول؛ باب الحماسة، قول بعض شعراء بني العنبر على بحر البسيط، وهو قريط بن أنيف العنبري التميمي: [2]

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذا لقام بنصري معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... قاموا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين ينـدبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لي بهم قوما إذا ركبوا ... شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

حماسة البحتري:

منهج الكتاب في حماسة البحتري:

كان أبو تمام قد فتح باب المجموعات الشعرية المتفردة بحماسته؛ يقول الدكتور عمر الدقاق:"لا ريب أن أبا تمام كان رائد من ألفوا وصنفوا في هذا النمط من المختارات الشعرية"[3]، وكانت حماسة البحتري محاكاة لحماسة أستاذه أبي تمام ويصف الدكتور إحسان عباس حماسة البحتري: "حاول البحتري (284هـ) محاكاة صنيعه، فورد مورداً مختلفاً، وأكثر من الأبواب، ولم يتبين الحاجة إلى جمع الفنون المتشابهة في باب، وغلبت عليه النزعة الأخلاقية، بينما كان المحمل الضمني عند أبي تمام " جمالياً ".

---

[1]– إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر، ص 72.

[2]– أبو علي المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص 20. وما بعدها

[3]– عمر الدقاق: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، ص63– 64.

ولا تمثل حماسة البحتري إزاء طريقته في الشعر " تكامل " التشابه أو التناظر، بينا تكون ماسة أبي تمام وطريقته " تكامل " التوازي بين شعره وأشعار الحماسيين"[1].

[1]– إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر، ص 72.